شروط الخطاب في الرد على كتابات بعض المستشرقين

د. كاري نادية أمينة
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
جامعة تلمسان

يربط ادوارد سعيد الاستشراق بالعهد الاستعماري ما بين القرنين الثامن عشر و التاسع عشر باعتبارها عملية فكرية تهدف في المقام الأول إلى دراسة كافة البنى الثقافية للمشرق، و لعل ارتباطها بالحركة الاستعمارية و التوسعات الأوروبية أو المركزية الأوروبية كما سماها فوكوياما[1]، جعل الكثير من المفكرين العرب يعتبرون المستشرقين الأوائل ممهدين للاستعمار، هذا الارتباط الوثيق بين الاستعمار والاستشراق جعل لهما نفس الاتجاه و المعنى على أساس اشتراكهما في الهدف.

وانطلاقا مما سبق فإذا كان الاستعمار ينطوي على عنف مادي مورس على المجتمعات المستعمرة على مدى طويل من الزمن، فالاستشراق بدوره و من خلال بعض الكتابات انطوى على عنف رمزي ، و عليه كان لزاما على هذه المجتمعات محاولة البحث عن السبل الكفيلة بالحد من هدا العنف الرمزي والرد عليه بشكل يسمح بتصحيح صورة المجتمعات الشرقية كما يدركها بعض

المنارة للاستشارات

المستشرقون، و لعل الخطاب المباشر واحد من هذه السبل، فكيف للخطاب المباشر أن يواجه العنف الرمزي في شكل استشراف سلبي؟

لقد أصبح موضوع الاستشراق و المستشرقين من بين المواضيع التي استدعت انتباه المهتمين ، لما لمسوه في دراسات بعض المستشرقين الذين حادوا عن بعض الحقائق ، حتى أصبح ما يقومون به من تحقيق علمي أو اكتشاف تاريخي مزيجا من الحق و الباطل[2] .

و حتى نتمكن من الإحاطة بهذا الموضوع سوسيولوجيا و كذا التحديات التي فرضها ، علينا أولا تحديد مفهوم الاستشراق على أنه علم يختص بفقه اللغة ، كما أنه الوسيلة لدراسة كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق و الغرب[3].

و من بين الأمثلة العديدة التي يمكننا إعطائها عن الدراسات الاستشراقية التي صورت العلاقة بين العرب و المسلمين و بين الغرب على أنها علاقة هيمنة و تبعية، نجد مؤلف أندريه سرفيه بعنوان سيكولوجية المسلمين و الذي نشر بعد الحرب العالمية الأولى، و كتاب العقل العربي لرفائيل بتاي في سبعينيات القرن الماضي[4].

المنارة للاستشارات

حيث تناول الكاتبين موضوع المجتمع العربي و الثقافة الإسلامية، و بالرغم من اختلاف اللغة والمصطلحات المستعملة حيث ارتبط كل منهما بالفترة التاريخية التي عاصرها، إلا أن كلاهما صورا العلاقة بين الغرب و الشرق من خلال المنزلة التي يحتلها اللا غربي مقارنة بالغربي، فالأول تحدث عن الذات الغربية المسيطرة [5] ، والتي ربطها بالفترة الاستعمارية حيث انطلق من دونية الآخر العربي المحتل، و فوقية الذات الأوروبية المحتلة. فالعرب حسب أندريه سرفيه لا يملكون ثقافة مستقلة و ما يعرف بالثقافة العربية ليس إلا ثقافة مستعارة ، أما الإسلام فهو ليس إلا مجموعة من التقاليد المسيحية واليونانية و اللاتينية، جردت من شكلها الشعري، و من معانيها الرمزية و الفلسفية، فنتج عن ذلك عقيدة متحجرة باردة في شكل نظرية هندسية...[6].

إن هذا التصوير المجرد للإسلام و المسلمين و لثقافة العرب من شأنه أن يثير حفيظة المؤرخين العرب حيث اعتبر هذا النوع من البحث العلمي عنفا رمزيا مورس على التاريخ الإسلامي، وعليه جاءت بعض المحاولات التي عملت على إبراز عظمة التاريخ العربي و الإسلامي، و قد عرفت هذه المرحلة بالنزعة التبريرية و الهجومية المعاكسة[7].

المنارة للاستشارات

من جهة أخرى توصل بتاي إلى القول بأن الفكـر العربـي هـو دون الفكر الغربي في تفهمه للواقـع و في تفاعلـه معـه، معتمـدا في ذلك على شهادات بعض العرب الـذين كانـت لـه معهـم علاقـات شخصية، و الذين ربطوا الفكـر العربـي بالعاطفـة و الرغبـة[8]، و هـو إجحاف آخر في حق الفكر العربي بنعته باللاعقلانية، بـل و تكـريس هذه الفكرة من خلال مثل هذه الكتابات و هو ما يمثـل عنفـا في حـد ذاته.

مثال آخر عن رمزية العنف على العـرب و المـسلمين نعـتهم بالتحجر الاجتماعي و هو المفهوم المركزي الذي جاء به كارلتون كون في مؤلفه القافلة: قصة الشرق الأوسط، و هـو أنثربولـوجي أمريكـي جاءت كتاباته لتبرز علاقة الغرب بالآخر اللاغربي من حيث علاقة تقدم وتخلف.

بصفة عامة فان بعض كتابات المستشرقين مثلـت و لفـترة مـن الزمن تعسفا مقصودا كان أم غير مقصود نـابع أساسـا مـن المعرفـة السطحية للإسلام و للعرب، جعـل مـن صـورة هـؤلاء تبـدو غـير واضحة المعالم لـدى الغربـي القـارئ سـواء كـان مختـصا أو لا، بـل وشوهها في أغلب المواطن، و هو ما رأينـا فيـه عنفـا رمزيـا تعـددت محاولات المفكر العربي لرده.

المنارة للاستشارات

حيث يشير مفهوم العنف إلى كل سلوك فعلي ينطوي على استخدام غير مشروع للقوة المادية للتأثير على إرادة المستهدف، وعلى هذا الأساس فان السلوك العنيف قد يكون متضمنا لمعاني الإرغام والقهر من الفاعل و معاني الخضوع و الاستسلام من المستهدف.

في حين أن العنف الرمزي هو عنف غير مادي، يتم أساسا عبر وسائل التنشئة و تلقين المعرفة و الإيديولوجيات، و هو شكل لطيف و غير محسوس من العنف و غير مرئي بالنسبة للمعنفين أنفسهم. وقد أشار بيار بورديو إلى أن العنف الرمزي يمارس تأثيره على شتى البناءات الاجتماعية حتى الاقتصادية و الثقافية منها، كما أنه فعال ويحقق نتائج أكثر من تلك التي يمكن أن يحققها العنف المادي.

ويمارس العنف الرمزي على الفاعلين الاجتماعيين بموافقتهم وتواطئهم، و لذلك فهم غالبا ما لا يعترفون به كعنف، بحيث أنهم يعتبرونه كبديهيات من خلال وسائل التنشئة الاجتماعية وأشكال التواصل داخل المجتمع. ومن هذه الزاوية يمكن حسب بورديو فهم الأساس الحقيقي الذي يستند إليه العنف الرمزي الذي يبسط سيطرته و هيمنته، و ذلك من خلال التقنيات والآليات التي يعتمدها.

العنف إذن واقعة في تاريخ المجتمعات البشرية، و هو يعتمد على تقنيات و وسائل مختلفة كما يتخذ أشكالا متعددة، و هنا تظهر

المنارة للاستشارات

الحاجة الملحة إلى توعية الأفراد في المجتمعات بأخطار التحديات التي تواجهها والتي تحمل في طياتها عنفا ماديا و آخر رمزيا، و الذي يمكن مواجهته من خلال التربية و الخطاب التربوي على اعتباره أداة فعالة للتوعية ووجها من أوجه التقدم و الوعي الحضاري المنوط بهذه المجتمعات في محاولة من أفرادها لتصحيح صورتهم كما أدركها الآخر.

يجمع الخطاب بين عدة مفاهيم مختلفة و متداخلة فهو يمثل الكلام و الملفوظ ، و الحوار ، و عليه فالخطاب نظام فكري يظهر على شكل جمل مشروطة بوضعية اجتماعية أو إيديولوجية معينة، كما يهدف إلى تقييم و تقويم ظواهر معينة في المجتمع، و لعل من بين أهم التحديات التي يواجهها الخطاب في المجتمعات العربية رد العنف الرمزي الذي يمارس عليه من خلال كتابات بعض المستشرقين ووصفهم للإسلام لا من خلال القرآن الكريم و لكن من خلال مقارنته بباقي الأديان. لسنا هنا في محل تقييم أو تحليل هذا الخطاب وإنما نحاول فقط إلقاء الضوء على ما يمكن أن يتوافر عليه حتى يحقق أهدافه.

يتنوع هذا الخطاب إذن بتنوع من يلقونه و من يتلقونه، كما تختلف الموضوعات التي ينصب فيها باختلاف السياقات التي تكتنفه.

المنارة للاستشارات

ولعل أهم ما ينبغي الإشارة إليه في هذا الصدد هو تأثير الخطاب في أفراد المجتمع، و دوره في تصحيح كل ما حاول المستشرقون من تضليله أو إخفائه من حقائق عن التاريخ الإسلامي، ولكنه حتى يتمكن من ذلك عليه أن يتمتع ببعض السمات والشروط التي من شأنها أن تجعله يصل إلى أهدافه المنشودة كما يمكن لها أن تجعله أكثر فاعلية، ليجد له أصداء ليس فقط في المجتمعات العربية الإسلامية بل في العالم ككل.

أولا عقلنة الخطاب ، أي إضفاء صفة العقلانية عليه، و لا يتم ذلك إلا بالثورة على الأفكار الرجعية التي لا ترتبط بالإسلام قطعا، فالإسلام ثورة على الانحراف عن التوحيد ترمي إلى تحرير العقول من الشك و الشرك و الخرافة و الوهم، و هو ثورة على الأوضاع المتردية في علاقات الأفراد و شؤون التنشئة. إن العقلانية التي نناشدها في الخطاب الإسلامي هي العمل على الموائمة بين العقل والوحي، بين الواقع و النص القرآني الكريم وما جاء على لسان الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة و السلام.[9]

ثم إضفاء صفة العلمية عليه، حيث يربط الإسلام بين الإيمان والفكر، المعرفة والتقدم في الميدان العلمي، فإذا بني الخطاب الإسلامي على أسس علمية وجه فكر وعقل المخاطب إلى تحليله

المنارة للاستشارات

على أسس علمية، مما يجعل فهمه و تقبله أمرا سهلا طالما خاطب العقل.

أخيرا و ليس آخرا منهجيته، حيث يوضع له منهاجا خاصا، من خلاله تصل الأفكار واضحة وتأتي مرتبة، الأمر الذي سوف يجعلها أكثر بساطة في ظاهرها وأكثر عمقا في مضمونها وذلك من خلال عقلنته وجعل أفكاره تسير وفق مناهج علمية.

انه وبتوافر هذه الأسس الثلاثة في أي خطاب من شأنه إيصال أفكاره وإيضاحها وفق ترتيب منطقي، وبالتالي يسهل عليه بلوغ غاياته من توجيه و توعية، و بالتالي مواجهة العنف الرمزي والفكري الذي يهدد أفراد المجتمع الموجه إليه.

كما أنه ثمة بعض القواعد و السمات التي من شأنها ضمان نجاح الخطاب في تحقيق الأهداف المرجوة و من بينها أن يتوجه الخطاب إلى الحاجات الأساسية للمخاطب وأن يراعي الخطيب المستوى اللغوي و الفكري للمخاطب كما عليه أن يلتزم في صياغة الخطاب بتحقيق المعادلة بين اللفظ والمعنى بحيث لا إيجاز مخل و لا إطناب ممل فشكل الخطاب لا ينفصل عن مضمونه فليس ثمة خطاب رشيد يعتمد على أخطاء لفظية، إذ لا يمكن لخطاب أن ينجح في إبلاغ مضمون رفيع المستوى دون أن يعرضه صاحبه في حلة لفظية تعادل مستوى مضمونه.

المنارة للاستشارات

الهوامش:

1–خالد حامد: المدخل إلى علم الاجتماع، جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، **2008**، ص**166**.

2–أحمد عبد الرحيم السايح: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى،**1996** ، ص**9**.

3–المرجع نفسه ص**11**–**12**.

4–هشام شرابي: النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية،**1990**، ص**37**.

5–المرجع نفسه، ص **38**.

6–المرجع نفسه، ص **38**.

7–نور الدين الزاهي: المقدس الاسلامي، دار توبقال للنشر، المغرب، **2005**.

8–هشام الشرابي:مرجع سابق، ص **40**–**41**.

9–فاروق عمر فوزي: الاستشراق و التاريخ الاسلامي(القرون الاسلامية الأولى)، دراسة مقارنة بين وجهة النظر الاسلامية و وجهة النظر الأروبية، الأهلية للنشر و التوزيع، لبنان ،**1998**.

المنارة للاستشارات

المنارة للاستشارات